الكارتوجرافيا العربية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)
"دراسة فى الجغرافية التاريخية"

د. إيمان عيد عبدالحميد*

المقدمة :

أطلق العرب على الخريطة اسم (صورة)، واقترنت الجغرافيا الوصفية منذ بدايتها برسم هذه الصور أو الخرائط، وكانت ذات اهتمامات قليلة.

والواقع أن جميع خرائط الجغرافيين الرواد المسلمين تكاد تشترك فى صفات عامة أبرزها الشكل الهندسى التخطيطى الذى لا يعترف بالشكل الحقيقى للقطر، لذلك كثيرًا ما يرد شكل القطر على هيئة مستطيل أو مربع، كما ترسم المظاهر الطبيعية من سطح وأنهار وجبال وبحار على شكل خطوط مستقيمة أو أقواس أو دوائر، وتظهر البحار الداخلية على هيئة دوائر كاملة، والاستثناء الوحيد من ذلك كله هو الإدريسى الذى اعتبر

* مدرس الجغرافية التاريخية (قسم الجغرافيا)، كلية البنات – جامعة عين شمس.

الخريطة أساس الجغرافيا فهو يلتزم – نسبيًا – بمقياس الرسم، وتحديد مواضع خطوط الطول ودوائر العرض، وبالشكل الحقيقى للمنطقة، لذلك اعتبرت أعماله قمة ما بلغته الكارتوجرافيا العربية من تطور.

موضوع االبحث :

يمثل القرن الرابع الهجري أوج ازدهار الجغرافية العربية الإسلامية بوجه عام، ونضج وإبداع الكارتوجرافيا العربية بوجه خاص، وتُعد هذه المرحلة بداية الخروج من النظريات اليونانية المتعلقة بجغرافية بطليموس، فهي من ابتكار الجغرافيين المسلمين وحدهم، ساعدهم في ذلك بعض العوامل التي ساعدت بدورها على تطور رسم الخرائط عند المسلمين نذكرها فيما يلي:

أ- **ما نقله الجغرافيون المسلمون وغيرهم من دراسات جغرافية وخرائط عن الأمم السابقة:** ساعد ذلك على حفظ التراث الجغرافي القديم، خاصة ما وصل من إنتاج في الجغرافية ورسم الخرائط عند بطليموس في القرن الثاني الميلادي، وذلك بنقله إلي العربية، وقد ارتبط بهذه المهمة العلمية تصويب أخطاء بطليموس وغيره من القدماء، وإضافة معلومات جغرافية جديرة مما أثرى المكتب الجغرافية العربية.

من أمثلة ذلك ما ذكره "ابن النديم" من أن كتاب الجغرافيا لبطليموس قد نقله الكندي نقلا رديئا، ثم نقله ثابت بن قرة الحراني (٢٢١هـ/ ٢٢٨هـ) نقلا جيدا.[١]

ب- **تطور علم الملاحة أو المرشدات البحرية :** ولعل خير مثال على ذلك ما نجده عند المقدسي الذي يذكر ما في أيدي الملاحين من دفاتر يتدارسونها ويعولون عليها ويعلمون بما فيها، وأنه قد تدبرها وقابلها بالخرائط التي معه، ثم إنه حادث شيخًا عارفًا بصورة البحر فاستفاد منه حقيقة صورة بحر فارس

(١)محمد بن اسحاق الوراق البغدادي "النديم": الفهرست، ج١، طبعة ليبسك، ألمانيا، ١٨٨٢م، ص ٢٦٨.

(المحيط الهندي والخليج العربي) كما سيأتي. وبهذا تميز المقدسي عن سابقيه – من الجغرافيين – في مجال رسم الخرائط وفاخر أقرانه وانتقد سابقيه.

ج- **الرحلات الجغرافية** : اتسعت دائرة المعرفة الجغرافية بفضل معرفة الجغرافيين والرحالة العرب بمناطق جديدة من المعمور التي دخلت دائرة المعرفة العلمية أول مرة على يد العرب وذلك في مناطق من جوف آسيا وعالم المحيط الهندي وشرق إفريقيا وغربها ومناطق من داخلية القارة الإفريقية فضلاً عن معرفتهم بأوربا حتى بحر البلطيق، وهكذا أضيفت إلي خريطة العالم جهات لم تكن معروفة من قبل. على سبيل المثال: أواسط وشمال آسيا (على نحو ما نجد في رحلة ابن فضلان في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ/٣١٠هـ). وكذلك معرفتهم بالشرق الأقصى عن طريق الرحالة (من أمثال ابن بطوطة) والتجار وربابنة البحر.

ولا تقتصر قيمة الرحلات على ما كان منها خارجًا عن حدود الدولة الإسلامية، وإنما نجد في الرحلات التي شملت الدولة الإسلامية ما يفيد كثيرًا في رسم الخرائط، حين سلك هؤلاء الرحالة مسالك لم تكن معروفة من قبل، أو كانت معرفتها قاصرة على الأدلة وأشباههم، فقدموا لهذه وتلك وصفًا جغرافيًا مفصلا بحيث يسهل بعد ذلك رسم شبكة هذه الطرق بدقة. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك رحلات الحج التي سلكت طرقًا صحراوية فحددت منازلها وما فيها من موارد مائية ومراكز استقرار بشري وقبائل ضاربة في الفيافي مع تحديد المسافات بين هذه المراحل، وهذا ما نجده مفصَّلا عند ابن جبير في رحلته التي كان يسجل فيها كل مشاهداته يوميًا.

وهكذا امتاز منهج الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط بالاعتماد على استيعاب المصادر الجغرافية السابقة – بعد النقد والتمحيص والتدقيق بما في ذلك المصادر غير العربية، والاعتماد على الرؤية والمشاهدة وجمع المعلومات من الحقل، وذلك خلال الرحلات والزيارات، وعن طريق السؤال؛ لذلك فقد تفاوتت دراسات الجغرافيين بمقدار ما التزموا به من هذا المنهج، فنجد في القمة أمثال ابن حوقل والمقدسي والإدريسي، الذين تفوقت جهودهم في رسم الخرائط على الجغرافيين من السابقين واللاحقين لهم، لشدة تحريهم في تطبيق المنهج الذي أشرنا إليه.

وفي هذا الصدد سنذكر أهم جغرافيي هذه المرحلة في رسم الخرائط ابتداءً من البلخي المتوفى (٣٢٢هـ/٩٣٤م) التي تمثل مصوراته اتجاهًا جديدًا في رسم الخرائط عند المسلمين، فقد ألف كتابًا بعنوان (صور الأقاليم) قدم فيه وصفًا للأقاليم المرسومة من قِبل المؤلف، وقد اتخذت خرائط البلخي أساسًا لرسم الخرائط عند الإصطخري المتوفى (٣٤٦هـ/٩٥٧م) في كتابه (المسالك والممالك) ومن ثم جاء بعد الاصطخري جغرافي آخر هو ابن حوقل المتوفى سنة (٣٦٧هـ/٩٧٧م) رسم أكثر من عشرين خريطة في كتابة المعروف بـ(صورة الأرض)، وجاء بعد ذلك المقدسي في كتابة (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، وإن كانت خرائط المقدسي مفقودة إلا أنه وصف طريقة رسمه للخرائط، ويعدُّ مكملًا للمدرسة الكلاسيكية العربية وآخر رجالها. تلك المدرسة التي تمثلت في نتاج مجموعة الجغرافيين الخرائطيين الذين اعتمدوا أساسًا في كتاباتهم الجغرافية على تصوير الأقاليم أو رسم الأشكال.

وهذه المجموعة من الخرائط نوع فريد جاء نتاجًا إسلاميًا خالصًا من إبتكار هؤلاء الجغرافيين، كما أنه دليل علي أصالة الفكر الجغرافي الإسلامي وقدرته على التجديد في مجال رسم الخرائط.

وقد جاءت هذه الخرائط الممثلة لأقاليم العالم الاسلامي في مستهل كتاب كل مؤلف عند تناوله لجغرافية كل إقليم، ثم جاءت المعلومات الجغرافية التالية للخريطة كشرح مفصل لما تضمنته الخريطة من ظاهرات جغرافية طبيعية وبشرية.

وفي ذلك يقول الاصطخري في مقدمة كتابه "وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويرًا وشكلا يحكي موضع ذلك الإقليم، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع، وما في أضعافها من المدن والأصقاع ... وما فيها من الأنهار والبحار"(١)

مشكلة البحث :

تتمثل مشكلة البحث في أن المؤلفات الجغرافية الإسلامية قد احتوت على العديد من الخرائط والأشكال والمصورات الجغرافية، ومثل هذا العدد لا يمثل كل ما أسهم به جغرافيو الإسلام في مجال رسم الخرائط، وذلك لضياع العديد منها، بدليل ما ورد عن خرائط – لم تصلنا – ضمن الكتابات الجغرافية التي كانت تتضمنها أول مرة كما سيأتي.

وكذلك ضاعت خرائط أخرى مع مؤلفاتها الجغرافية فيما فقدته الحضارة الإسلامية من تراثها الفكري، والذي يستدل عليه بالنقول عن هذه المصادر، أو مجرد ذكر أسماء تلك المؤلفات الجغرافية ضمن الإنتاج الفكري لأصحابها في الكتب التي تهتم بتراجم العلماء، وكان هذا يمثل مشكلة كبيرة في تتبع تطور رسم الخرائط.

تساؤلات البحث :

١- هل دراسة الجغرافيا خاصة الجغرافية الوصفية – أهم مجالات الجغرافية عند المسلمين– اقترنت دراستها برسم الخرائط منذ بدايتها أم لا؟

٢- هل ما جاء في المؤلفات الجغرافية الاسلامية من خرائط ومصورات يمثل كل ما أسهم به جغرافيو الاسلام في مجال الخرائط أم لا؟

(١) الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر الحيني، مراجعة شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٧.

٣- لماذا يمثل القرن الرابع االهجري (العاشر االميلادي) أوج ازدهار الجغرافية العربية عامة، وبداية إبداع وتطور رسم الخرائط في العالم االسلامي خاصة؟

٤- ماهي العوامل التي ساعدت على تطور رسم الخرائط عند المسلمين؟

٥- ما هو منهج الرواد الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط؟

هدف البحث :

رصد تطور رسم الخرائط عند المسلمين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ذلك القرن الذي يمثل أوج ازدهار الجغرافية العربية الإسلامية بوجه عام، ونضج وإبداع الكارتوجرافيا العربية بوجه خاص وتُعد هذه المرحلة بداية الخروج من النظريات اليونانية المتعلقة بجغرافية بطليموس، فهي من ابتكار الجغرافيين العرب وحدهم.

منهج البحث :

قامت الدراسة على استقصاء المادة الجغرافية من مصادرها متتبعة الترتيب التاريخى، ثم تحليلها وإعادة صياغتها جغرافيا بهدف توضيح اتجاهات تطور رسم الخرائط عند المسلمين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

ولقد اتبع فى هذه الدراسة المنهج التاريخي الذي يهتم بدراسة تاريخ الظاهرة وبُعدها الزمني خلال القرن الرابع الهجري. كما التزمت الدارسة أيضًا كلا من المنهج الأصولي في دراسة العوامل التي ساعدت على تطور رسم الخرائط عند العرب، والمنهج المقارن كما جاء عند المقارنة بين خرائط الاصطخري وابن حوقل على سبيل المثال.

الدراسات السابقة :

ليس هناك من دراسات سابقة تعرضت لتطور رسم الخرائط عند المسلمين فى الفترة الزمنية التى تم اختيارها وهى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، إلا أن هناك عدد من الدراسات التى أمكن الاستفادة منها فى استكمال معالجة هذه الدراسة، نذكر منها :

١- **دراسة عبد العال الشامي** : جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، العدد ٣٦، ١٩٨١.

هذه الدراسة وإن كانت تشابه في عنوانها موضوع البحث إلا أن الاختلاف بينهما كبير في الفترة الزمنية محل الدراسة، المحتوى، المنهج المتبع في الدراسة.

٢- **دراسة إبراهيم شوكة** : خرائط كتاب الأقاليم للإصطخري، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد ١٧، ١٩٦٩م.

يستعرض ابراهيم شوكة في هذه الدراسة خرائط كتاب الأقاليم أو كما يسمى بكتاب المسالك والممالك بالتحليل والمقارنة بغيرها من الخرائط كما جاء عند ابن حوقل.

المبحث الأول – الكارتوجرافيا العربية بداية القرن الرابع الهجري :

يعدُ أبو زيد البلخي[١] رائد المدرسة الإقليمية، التي رسمت مجموعة من الخرائط كونت الأطلس الإسلامي، الذي يخص بلدان الدول الإسلامية بخرائط متنوعة، حيث خص كل إقليم من الأقاليم بخارطة تفصيلية، وقد صنف في بلخ سنة ٣٠٨هـ أو بعد ذلك بقليل كتابًا سماه (صور الأقاليم)، وهو الكتاب الجغرافي الذي رسم فيه الخرائط للأقاليم الإسلامية، بعدما جمع المعلومات عن الأقطار المختلفة، وذلك عن طريق الرحالة المسلمين.

(١)البلخي: أحمد بن سهل البلخي، ولد بجوار بلخ في شامستان، ثم قصد العراق طلباً للعلم فتتلمذ للكندي، ودرس على يديه التاريخ والفلسفة، ألف كتابه المسمى بالمسالك والممالك (صور الأقاليم) ولسوء الحظ فإن الكتاب لم يصل إلينا. والبلخي من الرواد المسلمين في صناعة الخرائط، توفى سنة ٣٢٢هـ. النديم: مرجع سبق ذكره، ص ١٥٣، وانظر: نفيس أحمد، الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، ترجمة فتحي عثمان، مراجعة علي أدهم، دار القلم، الكويت، د. ت، ص ٦٧.

ويعدُّ هذا الكتاب في جوهره خرائط أضيف إليها نصوص مختارة، وقد اتبع البلخي أسلوب الربط بين الخرائط والمعلومات الجغرافية المتعلقة بها، وقد أرسى بذلك أساس سلسلة جديدة من المؤلفات الجغرافية المشتملة على خرائط توضيحية وكانت الخرائط شيئًا نادرًا في ذلك الوقت، ويدل عنوان الكتاب على أنه أُعد على شكل صور – خرائط – للأقاليم، وحينما نتلمس لفظ الإقليم نجد تباينًا كبيرًا بين اللفظ وأصل اشتقاقه عند الجغرافيين المسلمين(١).

الخرائط الجغرافية في كتاب صور الأقاليم :

يحتوي مؤلف البلخي على إحدى وعشرين خريطة، أولها خريطة للعالم خالية من خطوط الطول والعرض، رسمها على شكل دائرة يحيطها البحر المحيط ويمتد من الساحل الشرقي لأفريقيا نحو الشرق وجنوب المحيط الهندي (بحر فارس) حتى يتصل بالبحر المحيط، وفكرته عن البحر الأسود غامضة. وجعل البحر المتوسط متصلا بالبحر المحيط بواسطة قناة بين البحر المتوسط والبحر المحيط وظهرت بحيرة خوارزم أو آرال في الخارطة على شكل دائرة كبيرة في حين أن بحر قزوين لم يثبت على الخارطة، وكذلك لم يظهر البحر الأسود وبحر آزوف(٢).

(١) يقول ياقوت: "وأما اشتقاق الإقليم فذهبوا إلى أنها كلمة عربية واحدها إقليم مثل إخريط. وأخاريط، والإقليم إنما سمي إقليمًا؛ لأنه مقلوم من الأرض التي تتاخمه، أي مقطوع والقلم في اللغة: القطع، ومنه قلمت ظفري، وبه سمي القلم؛ لأنه مقلوم – أي مقطوع – مرة بعد مرة، وكلما قطعت شيء بعد شيء فقد قلمته ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥م، ج١، ص ٢٥.

(٢) أحمد سوسة: الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، دار الفكر العربي، ١٩٧٧م، ص ص ١٤٩-١٥٤.

وشكك المستشرق مينورسكي بخرائط البلخي، ويرى أن البلخي لم يوجد في كتابه سوى خريطة واحدة صوَّرَ بها العالم الإسلامي، ويستشهد بنص من المقدسي، المتوفي نحو (٣٨٠هـ-٩٩٠م) بأن البلخي كان يصور العالم على شكل طير منقاره بالقلزم وعنقه بالعراق[١]، والصحيح أن مينورسكي أخطأ بهذا الرأي، فإن إشارة المقدسي ووصفه لخريطة البلخي هذه، لم تكن لخريطة العالم كما يزعم مينورسكي، وإنما جاءت في أثناء حديث المقدسي عن وصف البحار وجاء ذكرها بقوله: "اعلم أنا لم نر في الإسلام إلا بحرين، أحدهما يخرج نحو مشارق الشتاء بين بلد الصين وبلد السودان، فإذا بلغ مملكة الإسلام دار على جزيرة العرب ...، وأبو زيد البلخي جعله شبه طير منقاره بالقلزم وعنقه بالعراق، وذنبه بين الحبشة والصين"[٢].

وإشارة المقدسي هذه تؤكد أن الخريطة التي رسمها البلخي لم تكن خريطة العالم، وإنما خريطة بحر فارس (المحيط الهندي)، وهي خريطة واحدة من بين إحدى وعشرين خريطة رسمها البلخي.

أما خريطة العالم للبلخي (شكل ١) فقد رسمها بشكل مستدير وضح عليها الأقطار المختلفة لبلاد الإسلام، ولما كانت هذه الأقطار المثبتة على خريطة العالم لا تمثل الحجم الصحيح (مربع، مستطيل)، فقد رسم كل قطر من هذه الأقطار بشكل مكبر بما يتناسب باعتبارها أول تجربة حقيقية في رسم الخرائط عند المسلمين[٣].

(١) مينوركسي: الجغرافيون والرحالة المسلمون، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، العدد ٧٣، ١٩٨٥م، ص ١١.

(٢) المقدسي :أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ٢، ليدن، ١٩٠٦م، ص ١٠.

(٣) جمال الفندي: الجغرافيا عند المسلمين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٢٨.

المصدر: خريطة العالم للبلخي عن نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية برقم ٣٤ جغرافيا، والأصل محفوظ في مكتبة أحمد الثالث باستنبول.

شكل (١) : خريطة العالم كما تصورها البلخي.

وتلت خريطة العالم خرائط إقليمية أخرى، منها خريطة للجزيرة العربية والمحيط الهندي (بحر فارس) والمغرب ومصر والشام وبحر الروم (البحر المتوسط) والعراق علاوة على ذلك رسم اثنتى عشرة خريطة أخرى لأواسط وشرقي العالم الإسلامي[١].

(١) نفيس أحمد: جهود المسلمين في الجغرافيا، تعريب فتحي عثمان، مراجعة علي أدهم، دار القلم، الكويت، د/ت، ص ١٤١.

وبعد ذلك يتم تمييز الظواهر الطبيعية في كل بلد، ففي خريطة العراق جعل البلخي للأنهار خطوط غليظة رمزًا للماء، وأحاط المدن المقصودة بالوصف بدائرة، ورسم نهر دجلة فقسم البلاد إلى قسمين، وأظهر مصبه في الخليج العربي عند شط العرب ورمز للمدائن بمربعات متوازية الأضلاع ودوائر ذات مساحات مختلفة تتناسب مع ما يظهر مع قيمة المدينة، ومن المدن الواضحة على الخريطة بغداد والبصرة.

وجاءت خرائط البلخي أقرب إلى رسوم تخطيطية منها إلى خرائط حقيقية، ويمكن القول أن هذه الخرائط مبسطة إلى درجة كبيرة، حتى إنه يمكن أن نطلق عليها خرائط كاريكاتيرية.

ومهما يكن الأمر فإننا ندين للبلخي بتثبيت مبدأ لازال من أهم مبادئ الجغرافية الإقليمية، وهو أقران المعلومات الجغرافية بالخارطة وجعل الخرائط أساسًا للشرح الجغرافي.

برع جغرافي آخر في بداية القرن الرابع الهجري وهو الجيهاني[١]، ألَّف كتابًا في الجغرافيا يسمى (المسالك والممالك)، يتعرض فيه لشبه جزيرة الهند، ويوجه اهتمامًا خاصًا لإقليم السند، وكتاب الجيهاني لم يصل إلينا وكل ما وصل إلينا نُقُول الجغرافيين المتأخرين منه، ويعد الإدريسي المتوفي سنة (٦٠٧هـ/١١٦٥م) أحد الذين رجعوا إلى هذا الكتاب في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ويذكر ذلك كراتشكوفسكي بقوله: "إن المادة التي جمعها الجيهاني من الأقطار المجاورة لخراسان، خاصة وادي السند والهند تكاد تكون هي المصدر الوحيد للإدريسي، أو على الأقل الأساسي للإدريسي عند تلك البلاد"[٢].

(١) الجيهاني: هو أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني، تولى الوزارة بخراسان، وذكر الصفدي، أنه لما ولي أبو الحسن أحمد بن إسماعيل، سنة ٣٠١هـ: وهو ابن ثمان سنين تولى التدابير الجيهاني، وكان أديبا فاضلا، وذكر إسماعيل باشا البغدادي وفاته سنة ٣٣٠هـ، بينما ذكر كحاله، أنه كان حيا سنة ٣٦٧هـ وذكر النديم عدة مؤلفات للجيهاني وذكر أولها كتاب المسالك والممالك، وكتاب الرسائل، وغيرها من المصنفات. انظر: النديم، الفهرست، مرجع سبق ذكره، (ج١: ص ١٥٣).

(٢) كراتشكوفسيكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٢٢٢.

وقد ذكر المقدسي كتاب الجيهاني ضمن المقدمة النقدية لكتب البلدان التي سبقته قائلاً: "إن الجيهاني كان صاحب فلسفة، .... فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك إليها ...، ألم تر كيف قسم العالم إلى سبعة أقاليم"(١).

ويمكن القول أن المصدر الأساسي للجيهاني هو ابن خرداذبة المتوفي نحو (٢٨٠هـ- ٨٩٣م)، ويؤكد المقدسي على ذلك فيقول: "ألا ترى أنك إذا نظرت إلى كتاب الجيهاني وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبة وبناه عليه"(٢).

ويرى سوسة: "أن مصنف الجيهاني والخرائط التي تصورها تمثل نقطة تحول في فن الكارتوجرافيا العربية من مدرسة الانبعاث المتأثرة بالنمط الإغريقي والفارسي إلى المدرسة العربية المتحررة من ذلك التأثير"، وأن إعادة رسم خرائط الجيهاني، كما تصورها يدخل من باب (الخرائط المُتَخيلة) ؛ لأنها أعيد رسمها من قبل علماء محدثين، ويلاحظ في هذه الخرائط الغموض السائد في تصوير بحر الخرز (بحر قزوين) والبحر الأسود(٣).

ويعد الجيهاني إلى جانب البلخي من رواد الجغرافية الوصفية العربية، ونهج على نهجه الجغرافيون العرب في رسمهم الخرائط المتميزة بالشكل الدائري للعالم، الذي يدور حوله من جميع الأطراف الدائرة المحيط الأوقيانوسي.

وقد نسب للجيهاني سلسلة من الخرائط المنفردة للأقاليم الإسلامية كمصر، والعراق، والجزيرة، وخراسان، وسجستان، وطبرستان، ... الخ. ولا نستطيع التحقق من نسبة هذه الخرائط؛ لأن الكتاب مفقود.

---

(١) المقدسي: مرجع سبق ذكره، ص ص ٣-٤.

(٢) المقدسي: المرجع السابق، ص ٢٤١.

(٣) أحمد سوسة: الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٨.

المبحث الثاني – الإصطخري ودوره في رسم الخرائط:

يعدُّ الإصطخري[١] أول الجغرافيين الذين اتبعوا طريقة البلخي في رسم الخرائط مستفيدًا من كتابه صور الأقاليم وخرائطه، ومضمنًا كتاب (المسالك والممالك[٢]) نفس مجموعة الخرائط، لكنها وصلت إلينا ملوَّنة في كثير من مخطوطات المسالك والمماليك، وليس هذا الاعتماد ما يعيب؛ لأن الأمر متكرر في المدرسة الجغرافية العربية.

ويبين الإصطخري في مقدمة الكتاب أن الغرض من كتابه تصوير الأقاليم، حيث إنه أقام كتابه على أساس أن يكون الحديث على الأقاليم معتمدًا على مصوَّر (خريطة)، يبين فيها ما يراد معرفته، حتى ترسم في خيال الناظر فكرة واضحة، حتى إنه يستغني بما جاء في الخريطة عن إعادة ذكر ما وصفه من ظاهرات. ففي ذكره لأرض الشام يقول عن مدنها: "قد ذكرناها في تصوير الشام (خريطة الشام) وفي إعادتها تطويل". ويكرر ذلك موضحًا أهمية الخريطة ونهجه في تقسيم الإقليم قائلا: "فاتخذت لجميع الأرض التي يشمل عليها البحر المحيط الذي لا يسلك صورة، إذا نظر إليه ناظر علم مكان كل إقليم ذكرناه، واتصال بعضه ببعض، ومقدار كل إقليم من الأرض، حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلا علم موضعه من الصورة، ولم تتسع الصورة التي جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم في صورته، فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه ثم أخذت كل إقليم من بلاد الإسلام على حدة"[٣].

---

(١) الإصطخري: إبراهيم بن محمد الفارسي، أبو إسحق الإصطخري، جغرافي رحالة من علماء الجغرافية، من أهل اصطخر بإيران، قام بسياحة طاف بها بلاد العرب وبعض بلاد الهند، ولم نعثر على تفاصيل حياته إلا على القليل، وأشار إليه ياقوت في مقدمة معجمه، وأهمل ترجمته.

(٢) اعتني بتحقيق هذا الكتاب دي غوية، في لَيْدِنْ، مطبعة بريل، وأعيد نشره في بغداد، مكتبة المثنى، سنة ١٩٦٦م، عن الطبعة الأوربية، وأعاد تحقيقه محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، في القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطابع دار القلم، ١٩٦١م.

(٣) الإصطخري: مرجع سبق ذكره، ص ١٥.

والاصطخري كغيره من جغرافيِّي هذه المدرسة، يقتصر على وصف العالم الإسلامي وحده، مقسمًا إياه إلى عشرين إقليمًا، لا بالمعنى المعروف لنا عن الأقاليم كأحزمة عريضة تضم عددا من درجات العرض؛ بل كمناطق جغرافية واسعة أو ولايات. ويلي الكلام العام عن الربع المعمور وأبعاده وعن البحار ووصف جزيرة العرب، وبحر فارس، (الخليج العربي)، مع المحيط الهندي، والمغرب مع الأندلس، وصقلية، ومصر، والشام، وبحر الروم، والجزيرة، والعراق، وإيران، والهند، ويختتم كلامه بوصف بلاد ما وراء النهر.

ويعدد الإصطخري أقاليم الأرض وممالكها، وقد قسم العالم إلى عشرين إقليمًا، ذكر كل إقليم وما فيه من البقاع، والمدن، وجعل لكل إقليم خريطة، وعند دراسته لكل إقليم يولي اهتمامًا بالمدن الكبرى، وأهميتها، ويمكن القول بأن المدن هي أكثر ما يُعني به الإصطخري، فهو يذكر المدينة، وموقعها، وما فيها وآثارها، والطرق التي تربطها بمن حولها، ويوقع ذلك كله على خرائطه.

ومما سبق يمكن القول بأن الإصطخري جعل الخريطة أمرًا أساسيًا في كتاباته عن الأقاليم، معللاً ذلك حتى ترسم في خيال الناظر فكرة واضحة، حتى إنه يستغني بما جاء في الخريطة عن إعادة ذكر ما وصفه من ظاهرات، كما جاء سابقًا. كما أنه اتخذ لجميع الأرض خريطة في مستهل كتابه، وهدفه من إيراد هذه الخريطة العامة أن يعرف من يطلع عليها موقع الإقليم الذي يصفه من العالم، وهذا هو المنهج الجغرافي السليم، ثم يتبع هذه الخريطة العامة بالخرائط الاقليمية.

الخرائط الجغرافية في كتاب المسالك والممالك للإصطخري

رسم الإصطخري خريطة للعالم، وثلاث خرائط للبحار، ثم سبع عشرة خريطة لمختلف الأقطار الإسلامية، تفاوتت التفاصيل في هذه الخرائط من خريطة لأخرى، ووردت الخرائط عند الإصطخري على النحو التالي[1]:

(١) إبراهيم شوكة: خرائط كتاب الأقاليم للإصطخري، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد ١٧، ١٩٦٩م، ص ٧.

١. **صورة الكل:** صور فيها الإصطخري العالم (شكل ٢) على ضوء الإمكانات المتوفرة لديه، فرسمه على شكل دائرة يحيط بها البحر المحيط، فيتصل به المحيط الهندي من جهة الشرق، كما يتصل بالبحر المتوسط من الغرب، ثم رسمت الممالك كل واحدة على هيئتها وصورتها، وكذلك مواقعها بالنسبة إلى بعضها البعض، كما يعرف كل جزء بالنسبة إلى الأجزاء الأخرى، ونجد هذه الخريطة لازالت بدائية تشبه خارطة البلخي، والجيهاني، فهي مثلهما خالية من خطوط الطول ودوائر العرض.

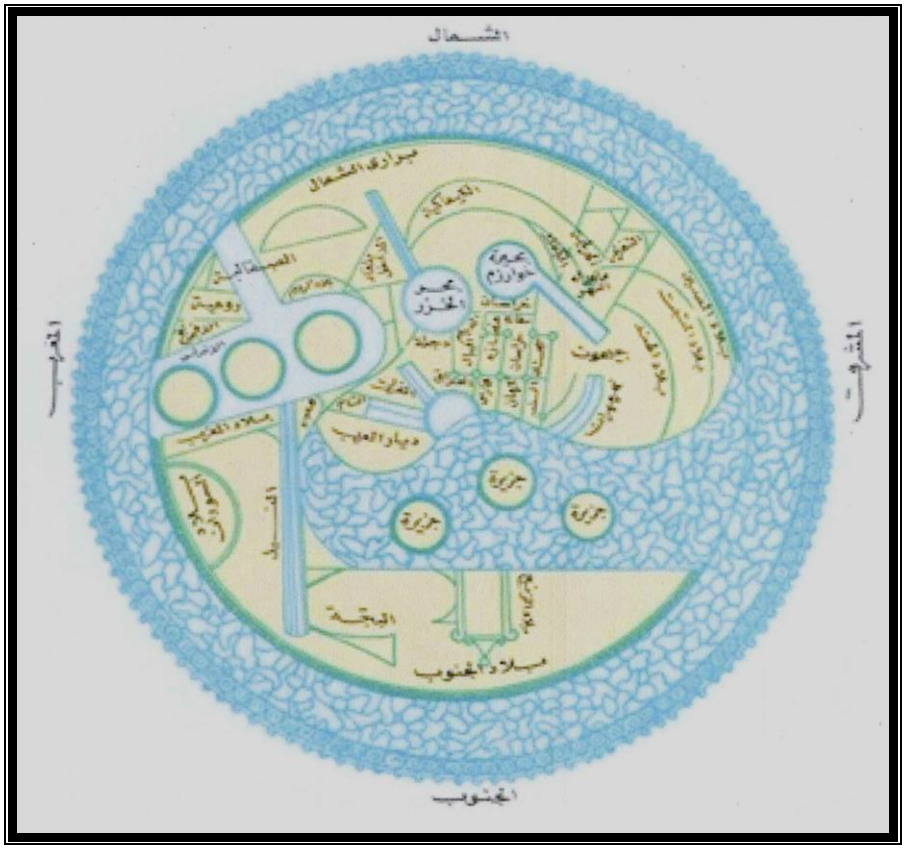

المصدر: حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ص (١٢).

شكل (٢) : خريطة العالم للإصطخري.

٢. **صورة ديار العرب:** بدأ بها الإصطخري؛ لأن فيها الكعبة، ومكة، وأم القرى، ومن ثم فهي جديرة بأن تكون محور الارتكاز.
٣. **صورة بحر فارس:** ويأتي ترتيبه بعد جزيرة العرب؛ لأنه يكتنف أكثر ديار العرب.
٤. **صورة المغرب** : وتشمل الأندلس، وأقطار المغرب العربي شمال أفريقيا، ولا يأخذ ليبيا كاملة، وإنما يأخذ ولايتي طرابلس وبرقة منها.
٥. **صورة مصر:** وتمتد من ساحل بحر القلزم، (البحر الأحمر) لتشمل أرض البجة في شمال شرق السودان، وميناء عيذاب.
٦. **صورة الشام:** وتمتد من بحر الروم (البحر المتوسط) حتى البادية، ومن بلاد الروم حتى حد مصر، وآخر حدودها رَفَح.
٧. **صورة بحر الروم:** ويشمل البحر المتوسط، وجعله إقليمًا خاصًا بذاته.
٨. **صورة الجزيرة:** وتشمل شمال العراق ما بين دجلة والفرات، وتدخل فيها قرى ومدن تنسب إلى إقليم الجزيرة، وإن كانت خارجة عنها، ولكن نسبت إليها لقربها منها.
٩. **صورة العراق:** وتمتد خارطة العراق عند الإصطخري من تكريت حتى عَبَّادَان على بحر فارس (الخليج العربي).
١٠. **صورة خورستان:** وهي المنطقة السهلية التي تقع جنوب غربِ إيران اليوم وتسمى اليوم (الأهواز)، وتعد تتمة لسهول العراق الجنوبية حيث يفصلها عن باقي أجزاء إيران جبال زاجروس.
١١. **صورة فارس:** وكان الإصطخري أكثر علمًا بها من غيرها، إذ هي موطنه الأصلي، ولهذا فهو يتحدث عنها بالتفصيل لا نجده في حديثه عن الأقاليم الأخرى.
١٢. **صورة كرمان:** ويصور فيها الإصطخري المناطق التي تقع جنوب شرق إيران الحالية.

١٣. **صورة بلاد السند والهند:** وقد جمعها هي وما يجاورها في إقليم واحد فهي عنده (بلاد السند وشيء من الهند، ومكران وطوران) وتشمل الجزء الأكبر من باكستان الغربية الحالية.

١٤. **صورة أرمينية وأذربيجان:** ورسم فيها الإصطخري مناطق جبال القوقاز فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود.

١٥. **صورة الجبال:** وتضم الجزء الغربي من الهضبة الداخلية والوسطى من إيران.

١٦. **صورة الديلم:** وتشمل المناطق الجبلية التي تشرف على سهول بحر قزوين الجنوبية.

١٧. **صورة بحر الخزر:** صور فيها بحر قزوين، والأقطار الإسلامية حوله.

١٨. **صورة المفازة بين فارس وخراسان:** وهي صحراء شرق إيران.

١٩. **صورة سجستان:** وتشمل جزءًا من أفغانستان الحالية.

٢٠. **صورة خراسان:** وتضم شمال أفغانستان، والأطراف الشمالية الشرقية من إيران.

٢١. **صورة ما وراء النهر:** وصوَّرَ فيها أراضي نهر سيحون وجيحون (سرداريا، وأمودايا، كما يعرفان الآن).

وهذا التقسيم الذي جاء به الاصطخري لأقاليم العالم الاسلامي قد سار عليه ابن حوقل، ولم يكن هذا التطابق – في عدد الأقاليم – وليد الصدفة، فهما متعاصران، وقد تقابلا وعرض الاصطخري بعض خرائطه على ابن حوقل، ويذكر ابن حوقل هذا اللقاء فيقول : "ولقيتُ أبا اسحاق الفارسي، وقد صور هذه الصورة لأرض السند فخلطها، وصور فارس فجودها، وكنت قد صورت أذربيجان التي في هذه الصفحة فاستحسنها، والجزيرة فاستجادها، وأخرج التي لمصر فاسدة، وللمغرب أكثر خطأ". ولقد قال الأصطخري لابن حوقل في هذه المقابلة : "قد نظرت في مولدك وأثرك، وأنا أسألك اصلاح كتابي هذا حيث ضللت، فأصلحت (ابن حوقل) فيه غير شكل وعزوته إليه".[١]

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، تحقيق كريمرز، لَيْدِنْ، ١٩٣٨م، ص ١٥٩.

ومن هنا يتضح لنا أهمية الخرائط في هذه المؤلفات الجغرافية، وسلوك واضعيها يدل على ذلك، فإن كل من الاصطخري وابن حوقل يعرض ما رسم من خرائط على صاحبه ليطلب ما لديه من تصور صحيح عن هذه الأقاليم وفقًا لخبرته أو في ضوء رحلاته ومشاهداته وما جمع من معلومات عن جغرافية الإقليم.

وليس معنى وجود أخطأ في بعض خرائط الاصطخري أن كل خرائط ابن حوقل تفوق خرائط الاصطخري، بل سنجد أن هناك خرائط للاصطخري أفضل مما قدمه ابن حوقل، وإن كانت كفة الأخير أرجح في االنهاية لأنه استفاد كثيرًا من الاصطخري، وأضاف ما حصله من رحلاته المتعددة.

وتختلف الخرائط التي وضعها الاصطخري في جودتها، ودرجة شموليتها، من إقليم إلى إقليم، فخريطة مصر ليس بها من البيانات ما يتناسب مع أهمية الإقليم ومساحته، وليس عليها من المظاهر الطبيعية سوى نهر النيل، وبحر الروم، وبحر القلزم، وجبل المقطم، وجبل الواحات، وليس فيها من أسماء المدن سوى إحدى عشرة مدينة؛ بينما نجد خريطة فارس مليئة بالأسماء.

ويمكن تبرير ذلك بأن الإصطخري من بلاد فارس مما قد أتاح له الكثير من المعلومات والحقائق عن بلاد فارس، وقد تأثر من جاء بعده بهذا الاتجاه. ولذلك نرى أن خريطة فارس ليست وحدها هي الخريطة المفصلة، لدينا أيضًا خريطتي خراسان وبلاد ما وراء النهر جاءتا بصورة مفصلة، ومعنى ذلك أن الإصطخري يصور شرق العالم الإسلامي بخريطة مفصلة أكثر من غربة.

وجاءت خريطة خراسان عند الإصطخري (شكل ٣) غنية بالمعلومات تكثر فيها الأسماء والمدن، ووضح الطرق الواصلة بين المدن بخطوط مستقيمة، ويبدو أنه كان على دراية بتلك البلاد.

المصدر: الإصطخري: المسالك والممالك، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية، برقم ١٩٩ جغرافيا، تاريخ النسخ مطموس، ويرجع تقريبًا إلى القرن الخامس الهجري، لوحة رقم (٢٤).

شكل (٣) : خريطة خراسان للإصطخري.

وأوضح الإصطخري من بين الأقاليم ثلاثة أقاليم بحرية هي: بحر الروم، وبحر فارس، وبحر الخزر، ودرس ما حولها باعتبار أن أحواض هذه البحار تمثل أقاليم جغرافية واضحة، وهو نهج إقليمي صحيح[١].

(١) عبد العال الشامي: جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، العدد ٣٦، ١٩٨١م، ص ٣٦.

ويفصل القول عن بحر الروم وبحر الخزر، فيقول عن بحر الروم : "وهذه صفة بحر الروم وما يكون فيه"(١). ورسمه بشكل منحنٍ يتسع كلما اتجهنا شمالا (شكل ٤)، ورسم اتجاه الشمال أسفل الخريطة، ورسم البحر المحيط أعلى الخارطة وهو متصل به، ووضع مدن الأندلس في أعلى يسار الخارطة، وتقابلها المدن العربية الإفريقية، على الساحل الثاني من البحر، ورسم جزر وسط البحر إضافة إلى جبل سماه جبل العلال.

أم بحر الخزر فقد بين حدوده بقوله: "وأما بحر الخزر فإن شرقيّة بعض الديلم وطبرستان وجرجان وبعض المفازة التي بين جرجان وخوارزم، وغربيّة أرّان وحدود السرير وبلاد الخزر وبعض مفازة الغزّية، وشماليّة مفازة الغزّية بناحية سياكوه، ووجنوبية الجيل والديلم"(٢).

ويذكر أن هذا البحر من البحار المغلقة بقوله: "وهذا البحر ليس له اتصال بشيء من البحار على وجه الأرض، فلو أن رجلا طاف بهذا البحر لرجع إلى مكانه الذي ابتدأ منه، لا يمنعه مانع إلا نهر عذب يقع فيه"(٣). فهو هنا يصف البحر مغلقًا، وتارة يذكر أن هناك نهرًا يصب فيه، ورسمه على الخارطة باللون الأزرق، دلالة على المياه العذبة.

ورسم الإصطخري لكل إقليم خريطة، فيما عدا ما وراء النهر (شكل ٥)، فرسم له خريطتين، وهنا يظهر بوضوح أن هدف الإصطخري الأوّل، هو إخراج صورة جغرافية للأقاليم دون مراعاة لأي اعتبارات أخرى كما ذكر سابقًا.

(١) الإصطخري: المرجع السابق ص ١٢١.

(٢) الإصطخري: المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٣) الإصطخري: المرجع السابق، ص ١٢٨.

المصدر: الإصطخري، مخطوط المسالك والممالك، مرجع سبق ذكره، لوحة رقم (١٦).

شكل (٤) : خريطة بحر الروم للإصطخري.

وجاء رسم بلاد ما وراء النهر على لوح كامل من الكتاب، وضح عليها الظواهر الطبيعية من جبال وأنهار وصحاري، والظواهر البشرية المتمثلة في المدن والطرق الواصلة بينها، ووضح المدن الرئيسية والمدن الفرعية الأخرى.

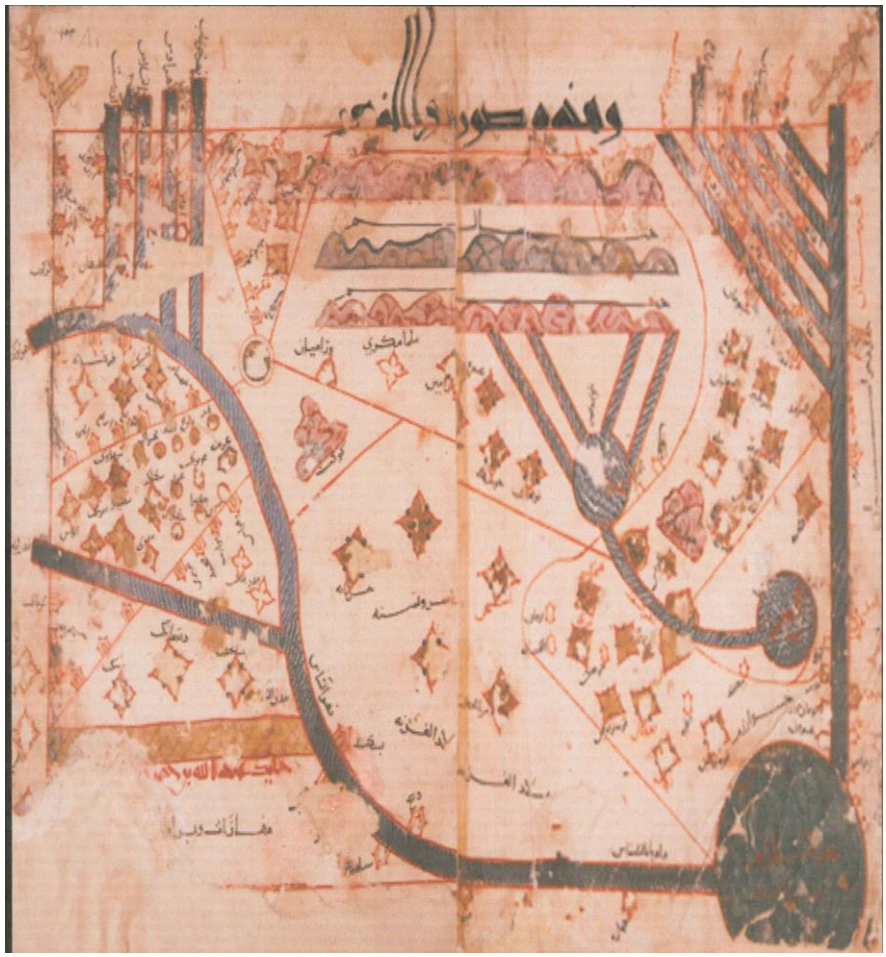

المصدر: الإصطخري، مخطوط المسالك والممالك، مرجع سبق ذكره، لوحة (٨٠).

شكل (٥) : خريطة بلاد ما وراء النهر.

أما خريطة العراق (شكل ٦) فهي تشبه خريطة البلخي وابن حوقل إلى حد كبير، ولكنه وضع الشمال أعلى الخارطة على عكس ما هو معهود في رسم الخرائط الإسلامية في تلك الفترة، وأخطأ في موضع عَبَّادَان، فقد رسمها إلى الغرب من نهر دجلة، ورمز للأنهار باللون الأزرق، ورمز للمدن الكبرى بدوائر مثل بغداد وواسط، أما المدن الأخرى الأقل أهمية، رسمها بشكل زهري، ومن المعروف أن الناسخ استعمل

هذه الرموز في كافة خرائط هذه النسخة، وقد يكون هذا من عمل الناسخ، أو ربما يكون الإصطخري قد رسم هكذا بالفعل، ونقل الناسخ ما هو في الأصل.

المصدر: الإصطخري، مخطوط المسالك والممالك، مرجع سبق ذكره، لوحة (١١).

شكل (٦) : خريطة العراق للإصطخري.

ويؤكد الإصطخري أهمية الخريطة في الشرح الجغرافي، ويستغني عن الكلام المطوّل في المتن، وعند توضيحه لحدود الشام وسرده للمدن الشامية باختصار، ويبين ذلك بقوله: "مدن قد ذكرناها في تصوير الشام وفي إعادتها تطويل"[1]. تابع شكل (٧).

المصدر: الاصطخري، مخطوط المسالك والممالك، مرجع سبق ذكره، لوحة (٣).

شكل (٧) : خريطة بلاد الشام للاصطخري.

(١) الإصطخري: مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

ورسم الإصطخري قارة أفريقيا على شكل كتلة من اليابس، تمتد جنوبًا لتحتل النصف الجنوبي من خارطة العالم بكاملة، ويفصل جهاتها المواجهة للصين والهند وإيران بحر واسع، ويفصلها عن جهاتها المواجهة لأوربا بحر (يمثل البحر المتوسط)، وترتبط بالبر الآسيوي عن طريق نتوء بري يمتد بين مصر والشام ويمثل شبه جزيرة سيناء.

وإجمالا يمكن القول أن الإصطخري قد درس خارطة العالم السياسية، وأن ما عبر عنه هو عماد ممالك الأرض الأربعة، وهو ما يعرف عنه في مصطلحات العلم الحديث بالدول الكبرى، حيث قسم العالم إلى أربع ممالك، كالآتي:

١- مملكة الفرس: ويدخل فيها سائر بلدان الأتراك، وبعض التبت، ومَنْ دانَ بدين أهل الأوثان منهم.
٢- مملكة الهند: ويدخل فيها السند وكشمير ومن دان بدينهم.
٣- مملكة الروم: وفيها الصقالبة، وسائر الأمم ممن دان بدين بلاد الروم.
٤- مملكة الإسلام: وتضم سائر البلاد الإسلامية، والخرائط التي رسمت خصَّتْ البلاد الإسلامية، ولم تُعْنَ بالبلاد الخارجة عن الإسلام.

ولم يغفل الإصطخري الخارطة الطبيعية، فقد قسم العالم إلى قسمين: جنوبي، وشمالي، والحد الفاصل بينهما خط العرض الذي يمتد من الخليج، الذي يأخذ من البحر المحيط بأرض الصين، إلى الخليج الذي يأخذ من البحر المحيط بأرض المغرب، والأندلس، وبعبارة أخرى حديثة، هو الخط الذي يمتد من طرف شبه جزيرة كوريا، وحتى مضيق جبل طارق، أي خط عرض ٣٥ درجة شمالاً على وجه التقريب.

ويمكن أن نوجز سمات خرائط الإصطخري كالآتي:

١- خلو هذه الخرائط من مقياس الرسم أو بالأحرى عدم استخدام مقياس رسم ثابت – إن صح التعبير – إذ إن بعض أجزاء الخريطة الواحدة ترسم تفصيلية وبمقياس رسم أكبر من بعض أجزائها الأخرى، ويتحكم في ذلك ما يتوفر لديه

من بيانات ومن الملاحظات الأخرى، وتكون المسافات بين المواقع والمدن المختلفة على أبعاد متساوية من الخريطة، بينما تتفاوت هذه الأبعاد وفقًا لما جاء في النص؛ لأن كل ما يعني به هو ترتيب تتابع المدن أو المواقع على الطرق، دون مراعاة طول المسافات بين هذه المدن والمواقع، ومن أمثلة ذلك خارطة العراق.

٢- وضع الشمال إلى أسفل الخرائط، والجنوب إلى أعلى، والشرق إلى اليسار، والغرب إلى اليمين، عدا خارطة مصر فقد وضع الشمال إلى اليمين بخلاف ما ألفناه من توجه الخرائط اليوم.

٣- جاءت الخرائط عند الإصطخري ملوَّنة فقد رسمت الأنهار باللون البني الغامق، وأوضح الأنهار الرئيسية مثل نهري دجلة، والفرات، والنيل، ورسم البحيرات والبحار باللون الأخضر، ورسم الصحاري مُلَوّنة بلون رمالها، حمراء، أو بُنية، أو صفراء مع انتشار نقط صغيرة داخلها، للدلالة على ذرَّات الرمل، أما المدن فقد رسمت بالأصفر أو الأحمر على أشكال مختلفة، منها ما هو على شكل أوراق الشجر، ومنها ما هو على شكل مستطيل، تعلوه دوائر صغيرة ملوَّنة، أما المدن الرئيسة فقد رسمت بدائرة، أو دائرتين، أو ثلاث، وقد لُوِّنَتْ بالأصفر.

٤- رسمت الجبال على هيئة الصورة، والمنظر الفوتوغرافي مجسمة، وجاءت البحيرات على شكل دوائر.

٥- رسم طرق المواصلات مستقيمة، أو منحنية، بصورة منتظمة، وكذلك الحدود الخارجية.

الـخلاصة :

أن الاصطخري قد أدخل مفاهيم جديدة لعلم الخرائط عند المسلمين بجعله الخريطة أساسًا للبحث الجغرافي، وهو اتجاه سيزداد عمقًا وأصاله عند ابن حوقل والمقدسي بحيث يصبح الاتجاه المميز للمدرسة الجغرافية الاسلامية المجددة في رسم الخرائط.

المبحث الثالث – الخرائط الجغرافية عند ابن حوقل :

يعدُّ ابن حوقل[١]. من أشهر الرحالة الجغرافيين الذين ساحوا في العالم في القرن الرابع الهجري، ودوّن أخبار رحلته في كتابه (المسالك والممالك والمفاوز والمهالك)[٢]، اقتصر فيه على صفات الممالك الإسلامية، ولم يتعرَّض لغيرها إلا قليلا، ووضَّحَ كتابه بالخرائط فرسم لكل إقليم من أقاليم الإسلام خريطة أو أكثر، وهذا الكتاب مختص بالجغرافية، وقد شمل وصف الأقطار، والأصقاع، والمدن، والبلدان، والأنهار، والقفار، وتجارة أهل البلاد، وجباية الضرائب، وذكر مسافات الطرق والمسالك.

أقام ابن حوقل كتابه وخرائطه علي أساس واسع من المعرفة الجغرافية بالأعلام وحقيقتها، وعلي أساس من التصور السليم للظاهرات الجغرافية، وكانت له المقدرة علي تصويب أخطأ السابقيين في مجال رسم الخرائط، علي نحو ما تقدم بشأن خرائط الاصطخري، وأيضًا استدرك علي بطليموس ما نسب إليه بشأن خرائط بحر الخزر، وفي هذا يقول ابن حوقل وهو يتعرض لبحر الخزر " فأما بحر الخزر فليست له مادة من شئ من هذين البحرين (بحر فارس وبحر الروم اللذان يأخذان من البحر المحيط)..... ولقد قرأت في غير نسخة لجغرافيا أنه يستمد من بحر الروم عن بطليموس، وأعوذ بالله أن يكون مثل بطليموس يذكر المحال أو يصف شيئا بخلاف ما هو به"[٣]

---

(١) ابن حوقل: هو محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم، تاجر رحالة من علماء البلدان، كان تاجراً رحل من بغداد سنة ٣٣١هـ، ووصل المغرب، صقلية، الأندلس، وغيرها من البلاد. وله كتاب المسالك والممالك، ويسمى أيضاً صورة الأرض.

(٢) طبع الكتاب طبعة أولى في لَيدنْ، باعتناء دي غوية، بعنوان: "المسالك والممالك"، في المجلد الثاني من مجموعة المكتبة الجغرافية العربية سنة ١٨٧٣م. ثم أعيد طبعه في لَيْدِنْ أيضا سنة ١٩٣٨م، بعنوان: "كتاب صورة الأرض"، باعتناء كريمرز، عن أقدم مخطوطة لابن حوقل، وهي مخطوطة استنبول، التي يرجع تاريخها إلى عام ٤٧٩هـ.

(٣) ابن حوقل: مرجع سبق ذكره، ص ٢٢.

وقد اتبع ابن حوقل نهج الإصطخري في تنظيم خرائطه، وقد وصلتنا كاملة، وعددها اثنتان وعشرون. وهي:

١. ديار العرب
٢. المغرب من مصر إلى القيروان.
٣. من القيروان إلى طنجة والأندلس.
٤. مصر من الجيزة إلى البحر.
٥. مصر من الجيزة إلى النوبة.
٦. الشام.
٧. بحر الروم.
٨. الجزيرة المشهورة بديار ربيعة وبكر ودجلة والفرات.
١٠. العراق وبطائحها إلى البحر.
١١. خورستان.
١٢. فارس.
١٣. كرمان.
١٤. بلاد السند.
١٥. أذربيجان.
١٦. الجبال وأعمالها.
١٧. الديلم وطبرستان.
١٨. بحر الخزر.
١٩. برية خراسان وفارس.
٢٠. سجستان.
٢١. خراسان.
٢٢. ما وراء النهر.

مختارات من خرائط ابن حوقل

١) صورة الأرض :

رسم ابن حوقل خريطة للعالم سماها صورة جميع الأرض (شكل ٨)، وهي تشبه خريطة الإصطخري إلى حد كبير، فإذا ألقينا نظرة عامة على الخريطتين، نجد أن الهيكل العام لم يتغير في كلتيهما، من حيث استدارة الخريطة، ودوران البحر المحيط حولها، ثم من حيث رسم بحر فارس (المحيط الهندي) وبحر الخزر، وبحر خوارزم، مع إهمال رسم البحر الأسود.

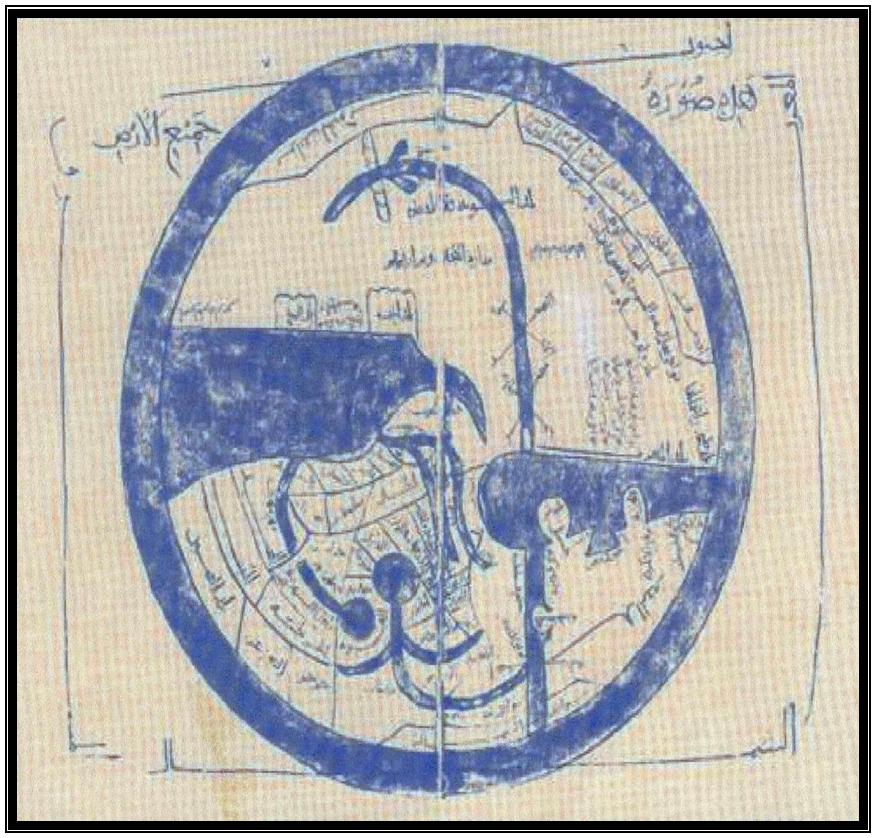

المصدر: مخطوط المسالك والممالك لابن حوقل، دار الكتب المصرية، رقم الحفظ (٢٥٨)، لوحة (١٠٥).

شكل (٨) : خريطة العالم لابن حوقل.

أما التعديل الذي أجراه ابنُ حوقل، فهو تثبيت مجرى نهري دجلة والفرات على الشكل الصحيح، ورسم ديار العرب بشكل أوضح من الإصطخري، وإضافة بعض المعلومات التي تتعلق بمصر، وأفريقيا، وإسبانيا، وصقلية، كما أجرى تعديلا أساسيًا ببلاد العراق، وأرمينيا، وما وراء النهر.

وتشمل صورة الأرض لابن حوقل جميع العالم المعروف آنذاك، ورسم فيها السواحل خطوطًا مستقيمة، واقواسًا، وأظهر الجزر والبحار الداخلية (قزوين، وآرال) في صورة دوائر كاملة الاستدارة.

وعُني ابن حوقل بذكر المظاهر التضاريسية من محيطات، وبحار، وأنهار، وبحيرات، وذكر أن البحر المحيط محيط بالأرض ورسمه في خريطته، ويحيط بالأرض من جميع الجهات، ويذكر ذلك قائلاً: "والبحر المحيط محيطٌ بالأرض كالطوق"(١)، ولا يقصد هنا بالبحر المحيط (المحيط الأطلسي)، بل هو بحر وهمي، يحيط بكل البحار الأخرى والتي هي عبارة عن امتداد له، والبحار الكبرى التي تتشعب من البحر المحيط، هي بحر فارس (المحيط الهندي)(٢). ثم بحر الروم، (البحر المتوسط)، وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط. وبحر فارس أفسحهما طولاً وعرضًا.

ووضع ابن حوقل في خريطة العالم مكان كل إقليم ذكره في كتابه، واتصاله مع بعض ممن جاوره من الأقاليم الأخرى، وقد قسم ابن حوقل خارطة العالم إلى قسمين هما: البر الجنوبي، والبر الشمالي، فقد رسم في البر الجنوبي نهر النيل وكتب عند قسمه الجنوبي

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٢٢.

(٢) تطلق تسمية بحر فارس (البحر الأعظم) على المحيط الهندي، وتطلق على البحار المحيطة بالجزيرة العربية، كما ذكر ابن حوقل والإصطخري. انظر: الإصطخري: مرجع سبق ذكره، ص ٢٨. وانظر: ابن حوقل، طبعة بيروت، مرجع سابق، ص ٢٠.

بلد النوبة، وفي وسطه الصعيد الأعلى، وفي أعلاه نواحي مصر، وعلى طول الساحل بلد المغرب، وتحته نواحي إفريقيا وأعمالها، وعند الساحل الغربي بلد طنجة وأعمالها، ثم على جنوبها على الساحل، أودغست للمسلمين، وغانة، وكوغة، وسامة، وغريو، وكزم، وكتب عند كل واحدة منها للكفار ثم رسم في أقصى الجنوب براري الجنوب.

وفي البر الشمالي رسم القسم الغربي من بلاد الروم ويشمل قارة أوربا، وفي القسم الشرقي من القارة ما يمثل قارة آسيا، وضع كلا من الصين والتبت والهند وروسيا، وأوضح في وسط الخريطة تقريبا ديار العرب، ثم وضع على يسار العراق على البحر خورستان، ثم فارس، ثم كرمان، والسند ووراء ذلك الجبال، ومفازة خراسان، وسجستان، ووراء ذلك الديلم، وطبرستان، وخوارزم، وخراسان، وبجانب خراسان رسم نهر جيحون، وما وراء النهر الصين والتبت، والهند، ويمثل القسم الشرقي من قارة آسيا.

٢) خريطة العراق :

تعد خريطة العراق (شكل ٩) من الامثلة الواضحة علي تأثر ابن حوقل في خرائطه بما جاء عند الاصطخري حيث نقِله الواضح لأراء الاصطخري فيما يثبته أو يتركه من تفاصيل الخريطة مع بيان فلسفته في ذلك، فهنا ينقل ابن حوقل ما ذكره الاصطخري في خريطة العراق فيقول "ولم أبالغ في وصف العراق لئلا يحتار الناس فيها.....، فهذه صفة جامعة لها وجيزة إذ قصدي فيها وغيرها إلى تخطيط حياتها في الصورة ".[١]

وهنا يشير إلي أن أصحاب هذه المدرسة الخاصة في الخرائط كانوا يفرقون بين استيعاب المادة الجغرافية عن الاقليم وهو أمر متوفر في بطون الكتب وبين رسم خريطة أو صورة للإقليم فهذا هو الجديد وهو المطلوب أساسًا.

(١) ابن حوقل: مرجع سبق ذكره، ص ٢٢١.

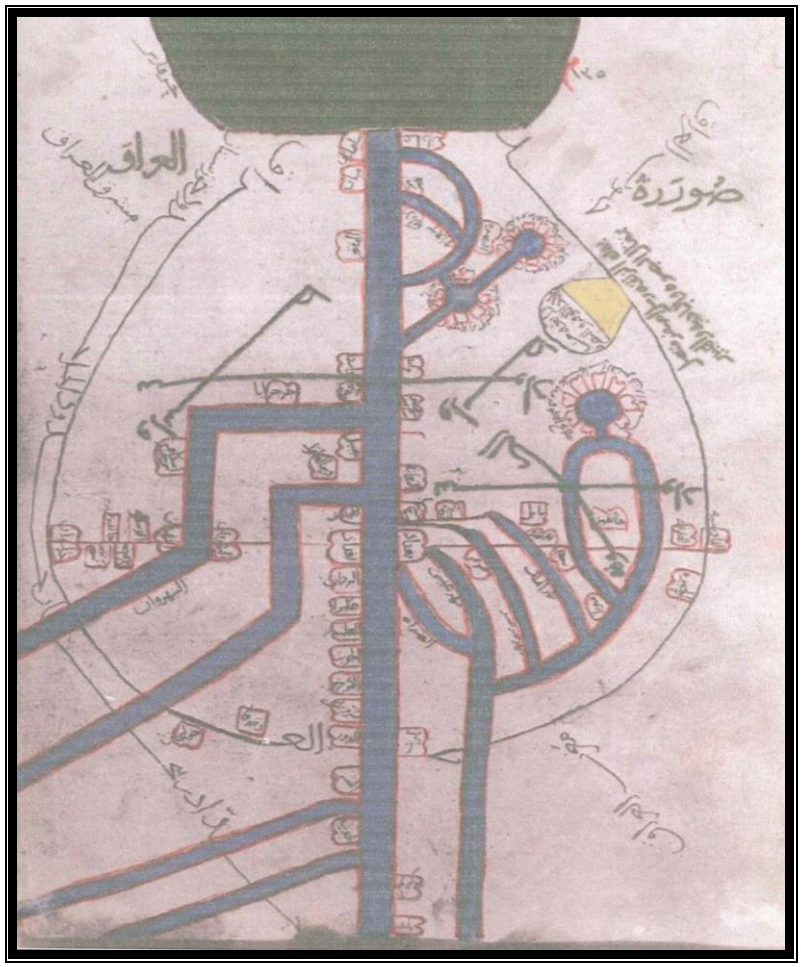

المصدر: ابن حوقل: مخطوط صورة الأرض، مرجع سبق ذكره، لوحة (١٣٥).

شكل (٩) : خريطة العراق لابن حوقل.

جاءت خريطة العراق لابن حوقل بشكل حلزوني، ووضع اسم العراق داخله، ورسم نهري دجلة والفرات والأنهار المتفرعة عنها، ورسم نهر دجلة يخترق العراق من الشمال إلى الجنوب، ويصب في الخليج العربي، ورمز له باللون الأزرق، أما الخليج العربي فرمز له باللون الأخضر، ومعنى ذلك أنه يرمز للمياه العذبة باللون الأزرق، واللون الأخضر للمياه المالحة.

ووضَّحَ المدن المهمَّة مثل الكوفة، والبصرة، ووضع بغداد على نهر دجلة وسط الخريطة تقريبًا، ورسم بطائح الكوفة، ووضع قناة تربطها بالفرات، وذكر عبارة: "بطائح الكوفة وما يليها من الأعمال". ثم وضع البصرة بالقرب من عبَّادان، ورسم بطائح البصرة، وبين بطائح الكوفة والبصرة رمز لصحراء بينهما، ورمز لها باللون الأصفر تعبيرًا عن لون الرمال، وذكر ذلك على الخريطة بقوله: "بهذه الزنقة رمل أصفر متصل برمال البصرة". وأخطأ في موضع عبَّادَان على ساحل الخليج العربي، وضعها غرب نهر دجلة، وربما يكون هذا الخطأ من تحريفات النساخ؛ وذلك لوجود نسخة أخرى رسم فيها خريطة العراق، ووضعت عبَّادان في الجانب الشرقي من نهر دجلة، وهو الموضع الصحيح مما رسم في الخريطة الأولى(١)؛ وهذا يدل على تحريف النساخ عن الأصول التي رسمها ابن حوقل، ورسم الجنوب إلى أعلى كما هو مألوف في الخرائط العربية الأولى.

٣) خريطة مصر :

أما خريطة مصر فتتميز عن خارطة الإصطخري بوجود بعض التعديلات على مواقع القرى في مصر، وكذلك مسار المجاري المائية للنيل، وفروعه الرئيسية، إلا أنه قام بتوجيه الخريطة نحو الجنوب، وعرفت باسم (صورة مصر). شكل (١٠).

وجاءت خريطة ابن حوقل في بعض المخطوطات في لوحتين، الأولى للدلتا، والثانية للصعيد، وقد علَّلَ ابنُ حوقل ذلك بقوله: "وما في بطن هذه الصفحة صورة مصر، ولم أجد سبيلا إلى إيراد صورة مصر في صفحة واحدة فأثبتها في صفحتين، والخريطة الأولى صورة الصعيد من أسوان إلى الفسطاط وشطنوف عند انفصال النيل منها، والثانية من انفصال النيل في خليجين، أحدهما يأخذ شرقي شطنوف إلى تنيس وأعمال دمياط، والآخر من غربي شطنوف آخذ إلى رشيد من ساحل الإسكندرية"(٢).

(١) المخطوط محفوظ بمكتبة طوب قبي سراي، وموجود نسخة مصورة منه في دار الكتب المصرية، برقم ٢٥٩ جغرافيا، لوحة (١١٩).

(٢) ابن حوقل: مرجع سبق ذكره، ص ١٢٨.

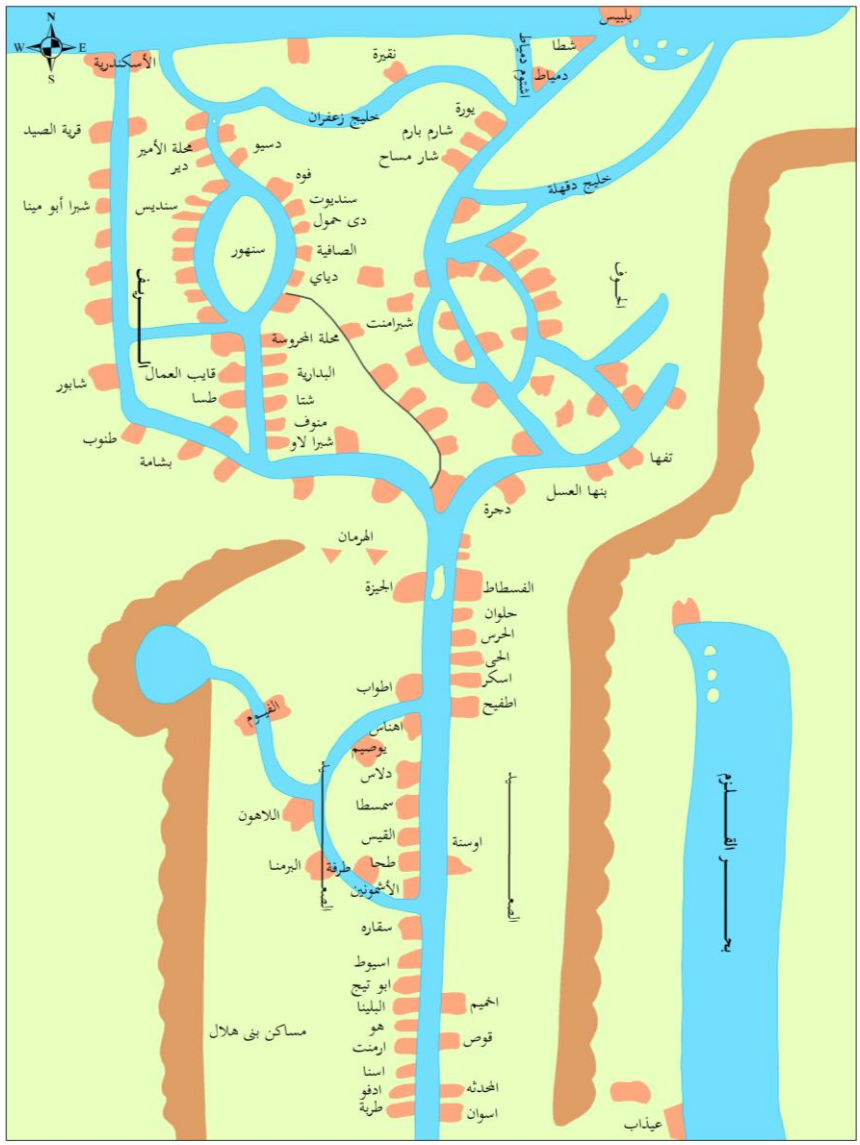

المصدر: ابن حوقل: مخطوط صورة الأرض، مرجع سبق ذكره، لوحة (٢٧).

شكل (١٠) : صورة مصر عند ابن حوقل.

وفي القسم الأوَّل من صورة مصر (الصعيد) رسم في أعلى الخريطة بحر القلزم ثم كتب تحت خط الساحل: "هذه الديار للبجة ونزلتْ عليهم أحياء ربيعة ومُضر، وصاهَرَ رؤساء ربيعة أكابر البجة وخالطوهم، فهي مشحونة بقبائل الجميع، وأعزُّ القوم ربيعة".

ورسم نهر النيل وسط الخريطة، وكتب على كل واحد من جانبيه الصعيد، تربط الكتابتان بكلمة بلد الصعيد، وذكر على جانب النيل الأعلى من المدن ابتداء من اليمين أسوان، والمحدثة...الخ. وعلى جانب النيل المقابل قرية إدفو، وإسنا، وأرمنت وأسيوط...الخ. وعند الجيزة مثلثان مكتوب فيهما هذان الهرمان. ثم في أسفل النيل في يمين الخريطة، ناحية الواحات، تحت مساكن بني هلال، وكتب تحت السلسلة الجبلية الموازية لطرف الخريطة الأسفل: هذا جبل الواحات يمتد من بحيرة أقنى على النيل إلى أن يصل إلى جبل القمر، وجُلُّه عامر.

أما القسم الثاني من صورة مصر(الدلتا) فقد كتب ابن حوقل في النصف الأعلى من الصورة: الحوف، وفي النصف الأسفل: الريف.

وقد استوعب ابنُ حوقل في خريطة الدلتا العديد من الظاهرات الطبيعية، وخاصة مجاري الأنهار المائية المتفرعة من فرعي الدلتا، ووضَّحَ المدن، والقرى، على طول هذه المجاري في داخل الدلتا حتى أمكن بسهولة إعادة رسم وتصوير دلتا النيل في عصره، ومعرفة الاختلاف الذي طرأ على شبكة المجاري المائية، والبحيرات وعلى مراكز الاستقرار البشري، وتبدو قيمة الخريطة وأهميتها عند ابن حوقل حيث يستغني بها عن إيراد تفاصيل في متن كتابه، وهذا ما حدث منه بالنسبة لمراكز الاستقرار الواقعة علي فرع دمياط إذ يقول " وأما الشعبة الآخذة من شطنوف مشرقة إلى دمياط وتنيس فقد ذكرت بين أشكال مدنها مسافاتها، ويستغنى بذلك عن إعادة لفظ فيه وتكرير قول منه[1].

(١) ابن حوقل: مرجع سبق ذكره، ص ١٣٥.

أما منابع نهر النيل فهي غير معروفة عند ابن حوقل، الذي يقول: لا يوجد أحد يعرف منابع نهر النيل التي تأتي من كهف يقع في بلاد زنجبار(تنزانيا حاليًا)، وفي مكان معين يمكن الاقتراب منه، ولكن لا يمكن الوصول إليه، وهنا يكرِّر ابن حوقل الآراء اليونانية القديمة نفسها، وبالرغم من الخطأ الذي وقع فيه ابن حوقل نجده يذكر بعض الملاحظات الدقيقة بطبيعة المياه في المنطقة التي يلتقي فيها نهر النيل حيث أشار إلى أن مياه البحر التي تجاور مصر مالحة، ولكن في النقطة التي يصب فيها نهر النيل تميل المياه إلى العذوبة، ولكن سرعان ما تزداد نسبة الملوحة، كلما توغلنا بعيدًا عن المصب. والراجح أن ابن حوقل لم يصل إلى منابع نهر النيل؛ وذلك لأنها مجهولة في عهده ويصفها وصفًا غير صحيح.

وعُني ابن حوقل بإيضاح العلاقات المكانية للبلد الذي يدرسه ويستعين بذلك إما من خلال الظواهر الطبيعية من جبال، وأنهار، أو بحيرات، أو بالأقسام السياسية المجاورة للإقليم، ويدل ذلك على حس جغرافي متقدم، إذ إن إيضاح العلاقات المكانية يَرسَخ بإبراز المعالم الجغرافية، فابن حوقل عندما يذكر موقع مصر يحدده قائلا: "فأما مصر فلها حدٌ يأخذ من بحر الروم من الإسكندرية، ويزعم قوم من برقة في البرية حتى ينتهي إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلد النوبة ثم ينعطف على حدود النوبة من حد أسوان، حتى ينتهي إلى بحر القلزم، ثم يمتد على بحر القلزم ومجاور القلزم إلى طور سيناء...، ويرجع إلى الساحل مارًا على بحر الروم إلى الاسكندرية، ويتصل الحد الذي قدمت ذكره من نواحي برقة"[1]. ويوقع ذلك كله على الخريطة.

وأطلق على خريطة بلاد الشام اسم "مصور بلاد الشام" (شكل ١١) وهي من الخرائط الإسلامية النادرة التي تبرز مواقع البلدان على امتداد ساحل البحر المتوسط الشرقي، بالإضافة إلى توقيع بعض الظاهرات الطبيعية المتمثلة في السلاسل الجبلية التي تمتد من لبنان جنوبا، إلى شمال بلاد الشام، محددًا على الخريطة اتجاه المشرق والمغرب.

(١) ابن حوقل: مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠.

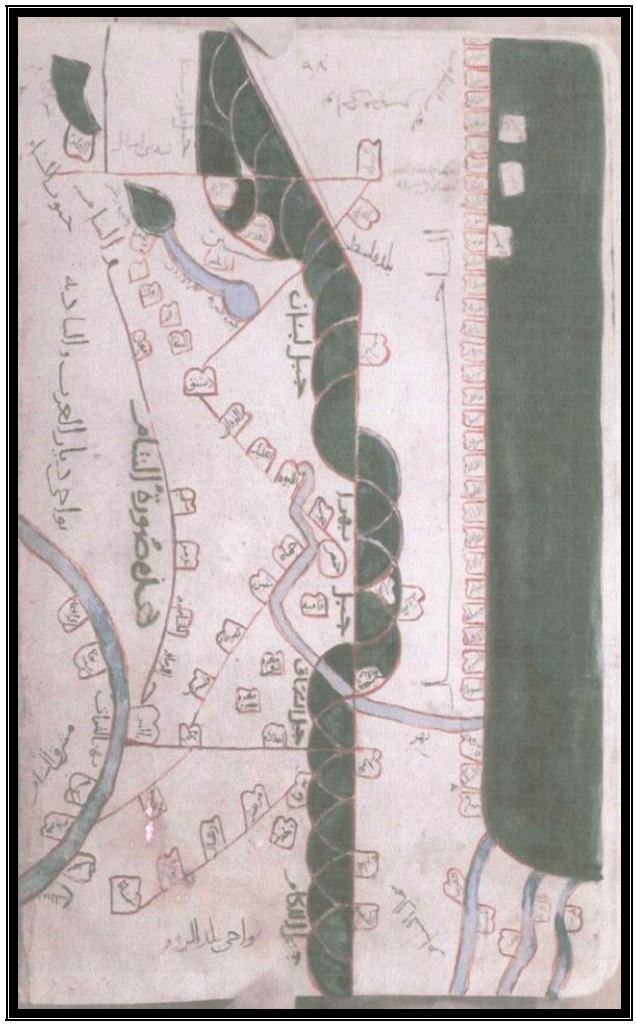

المصدر: ابن حوقل، مخطوط صورة الأرض، مرجع سبق ذكره، لوحة ٩٨.

شكل (١١) : خريطة الشام لابن حوقل.

وإذا كان لنا أن نلخص العوامل التي ساعدت ابن حوقل على إبداع مثل هذه الخرائط فليس لنا إلا أن نقول ما حكاه عن نفسه من أنه كان شغفًا بأخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار، كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحي ووكلاء التجار، وقراءة الكتب المؤلفة فيها، وبعد أن يعرض لطريقته في الوثوق بما يحكي إليه

ومدى التنافر في الأقوال والتضارب بينها يقول: "وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحس في نفسي بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار وتجاور الأقاليم والأصقاع ".[١]

المبحث الرابع – المقدسي آخر جغرافيي المدرسة الكلاسيكية :

يسير المقدسي[٢] في نفس الاتجاه السابق من حيث إعطاء الخريطة اهتمامًا وجعلها أساسًا في الدراسات الجغرافية، وتمثل ذلك في مؤلفه(أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)[٣]، الذي ألفه وهو في سن الأربعين، في مدينة شيراز بفارس سنة ٣٧٥هـ.

والخرائط عند المقدسي لم تصل إلينا، وكل ما وصل منها وصفها في أثناء الحديث عنها في متن الكتاب. وذكر سوسة: "أن كل ما وصلنا من خرائط المقدسي ثلاث خرائط"[٤]. والصحيح أن هذه الخرائط لم تصل إلينا، وإنما أعاد رسمها علماء محدثون (شكل ١٢) وهي: (خريطة العراق)، (وخريطة ديار العرب)، (وخريطة الجزيرة) – مع ما جاء من وصف لها، ويلاحظ أن هذه الخرائط أعيد رسمها على الطريقة المتبعة حاليًا، بجعل الشمال في أعلى الخارطة، والجنوب في أسفلها.

(١) ابن حوقل: المرجع السابق، ص ٢٨٤.

(٢) المقدسي: هو محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي، رحالة من علماء الجغرافية، ولد في القدس واشتغل بالتجارة فهيأت له المعرفة بغوامض البلاد، ثم انقطع إلى تتبع ذلك، فطاف أكثر بلاد الإسلام، صنف كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ولا توجد ترجمة وافية عن حياته، توفى سنة ٣٩٠هـ، حسب قول أغلب الباحثين.

(٣) اعتني بتحقيقه دي خوية، ودوزي، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٧٧م، وأعاد نشره مكتبة الخياط، بيروت، بالأوفست عن مطبعة بريل. صالحية، مرجع سبق ذكره، ج٥، ص ١٣١.

(٤) أحمد سوسة: الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٤.

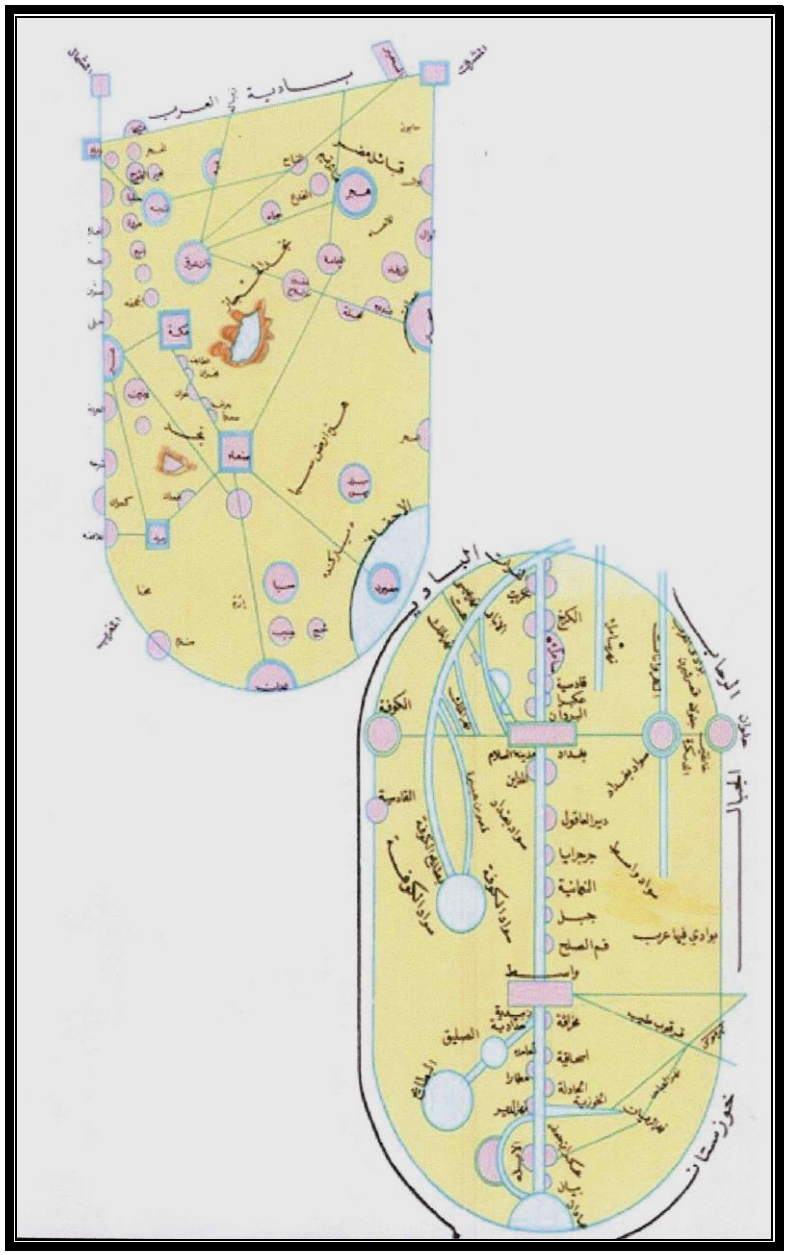

المصدر: حسين مؤنس، أطلس الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص١٤. نقلا عن مولر، ج٣ لوحة ١٨.

شكل (١٢) : تمثل الخريطة الأولى في الأعلى خريطة الجزيرة العربية، والخريطة الثانية في الأسفل خريطة العراق للمقدسي كما تصورها مولر.

رسم المقدسي خريطة للأرض مثل فيها الأقاليم، وحدودها، وخططها لكن هذه الخريطة فقدت حالها حال الخرائط الأخرى. ويصف المقدسي هذه الصورة قائلاً: "وقد قسمناها (أي مملكة الإسلام) أربعة عشر إقليما، وأفردنا أقاليم العجم عن أقاليم العرب، ثم فصلنا كور كل إقليم، ونصبنا أمصارها، وذكرنا قصباتها، ورتبنا مدنها، وأجنادها[١] بعدما مثلناها، ورسمنا حدودها وخططها"[٢].

ويصف بعد ذلك الألوان المستخدمة في رسم هذه الخريطة فيقول:"وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها المالحة بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المشهورة بالغبرة[٣]؛ ليقرب الوصف إلى الإفهام ويقف عليه الخاص والعام"[٤].

ويعد المقدسي بهذا الوصف أول الجغرافيين الذين استخدموا الرموز في الخرائط في تلوين البحار، والجبال، والوديان، بألوان قد تكون مشابهة للألوان المستخدمة في الوقت الحاضر.

والأرض عند المقدسي كروية الشكل تقريبًا، يقسمها خط الاستواء إلى قسمين متساويين، ويبلغ محيطها ٣٦٠ درجة، وهناك ٩٠ درجة بين خط الاستواء وبين كل القطبين، وقد أدرك أن نصف الكرة الجنوبي يغلب فيه الماء، في حين يتركز اليابس في نصف الكرة الشمالي.

---

(١) جاء في لسان العرب: الجند المدينة وجمعها أجناد، انظر:ابن منظور: لسان العرب، ج٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، مادة جند: ص ١٣٢. وقول المقدسي: ورتبنا مدنها، ربما يقصد بها الأقاليم الكبيرة مثل مصر والعراق والأجناد المدن الأصغر منها، أو مراكز الأقاليم.

(٢) المقدسي: مرجع سبق ذكره، ص ٩.

(٣) اللون الأغبر وهو اللون الشبيه بالغبار. انظر: لسان العرب، ابن منظور، مرجع سبق ذكره،

ج٥: ص ٣.

(٤) المقدسي: مرجع سبق ذكره، ص ٩.

وقسم المقدسي مملكة الإسلام – كما اتضح – إلى أربعة عشر إقليمًا، جعل لكل إقليم خريطة، ويشير المقدسي في مقدمة كتابه إلى أنه قد استعان في شرح كل إقليم من أقاليمه برسم صورة له حيث قال: "وأوضحنا الطرق؛ لأن الحاجة إليها أشد وصورنا الأقاليم؛ لأن المعرفة فيها أوضح"(١).

وبتقسيم المقدسي هذا فإنه خالف اتجاه السابقين له (البلخي، والإصطخري، وابن حوقل) وقد كان على علم وإطلاع بهذه الكتب، فهو يخالفهم عن قصد وعمد، وربما أراد بذلك أن يوفق بين ما يقوله، وبين الاعتقاد بأن هناك سبعة أقاليم شمال الاستواء، وسبعة أخرى جنوبية، ولا يقتصر خلاف المقدسي عن سابقيه في مجال الخرائط، وإنما يتعدى ذلك إلى دراسة الإقليم، فيتناول البلدان ومدنها بحسب تراتيبه الدقيقة، فيأتي ذكر الإقليم على رأس الهرم، وأول مدن الإقليم العاصمة (المدينة الرئيسية في الإقليم) تليها الكورة (أي المقاطعة) ومركزها القصبة، ثم تأتي المدن.

ونجد أيضًا في التقسيمات الإقليمية عدة اعتبارات أخرى، عندما يغاير في تقسيماته سابقية، فهو يقارن بين تقسيماته وما أورده البلخي، ويجعل هناك فارقًا أساسيًا، هو أنه استهدف إلى جانب تصوير الأقاليم، أنه يكورها، وتكوير الأقاليم عند المقدسي، هو الأساس في التقسيمات الإقليمية عنده، وربما جمع في خريطة واحدة أكثر من إقليم، ومن هنا جاءت صوره أقل عدداً، فضلا عن اختلافها عن غيره.

وهنا نود أن نشير على أن المقدسي لا يمثل حلقة منعزلة عن خرائط المدرسة الكلاسيكية، وإنما مكمل لها، فالخرائط التي رسمها فيها السمات البدائية، التي عرفت بها خرائط البلخي الأولى، وهي خالية من خطوط الطول، والعرض، كما أن التأليف عند المقدسي أخذ الاتجاه التطبيقي العلمي الذي يجعله يختلف عن اتجاه الفكر الإغريقي.

(١) المقدسي: المرجع السابق، ص ٥.

ويصف كراتشكوفسكي كتاب المقدسي قائلاً: "وينظم كتاب المقدسي إلى السلسلة التي بدأها أبو زيد البلخي، ويمكن اعتباره آخر ممثل للمدرسة الكلاسيكية الإسلامية، بالمعنى الدقيق، وتنعكس صلته بهذه المدرسة في الخرائط أكثر من المتن نفسه"[١].

ومن خلال تقسيم الأقاليم عند المقدسي نستطيع أن نعرف عدد الخرائط التي رسمها في كتابه، وجاء تقسيم الأقاليم العربية عند المقدسي سبعة هي: جزيرة العرب، والعراق، وآقور (الجزيرة) ثم الشام، ثم مصر، ثم المغرب، والأقاليم الأعجمية سبعة أيضا هي: المشرق، ثم الديلم، ثم الرحاب (أذربيجان)، ثم الجبال، ثم خورستان، ثم فارس، ثم كرمان، ثم السند، وهذه هي مجمل الأقاليم عند المقدسي، وعددها أربعة عشر، بمعنى أنه رسم أربع عشرة خريطة في كتابه وزاد على ذلك بقوله: "وبين أقاليم العرب بادية العرب، ووسط اقاليم العجم مفازة لابد من إفرادهما، والاستقصاء في وصفهما؛ لشدة الحاجة إليهما وكثرة الطرق فيهما"[٢]. ورسم لكل واحدة منهما خريطة ومعنى ما سبق أن المقدسي رسم ست عشرة خريطة، وقد أقام هذا التقسيم على عدة أسس أو اعتبارات، أشار إليها في ذكر كل إقليم.

ويرى البعض أن المقدسي رسم ثماني عشرة خريطة، أربع عشرة خريطة لأقاليم الإسلام، وخريطتين للبادية والمفازة، وخريطتين للبحار، ولم يذكر أنه رسم صورة للأرض افتتح بها خرائطه كباقي رواد هذه المدرسة[٣]، والراجح أنه رسم صورة للعالم، وضح فيها الأقاليم، وحدودها، وخططها، بدليل المقدمة التي ذكرها، ولكنها فقدت.

(١) كراتشكوفسكي، مرجع سبق ذكره، ص٢١١.

(٢) المقدسي: مرجع سبق ذكره، ص١٠.

(٣) فلاح شاكر أسود: علم الخرائط، نشأته وتطوره ومبادئه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٨م، ص ١٤٦.

ولقد قام المقدسي برسم خرائط لكل الأقاليم التي تحدث عنها، فإنه عندما يتكلم عن إقليم العراق، وإقليم مصر، وإقليم المغرب، في نهاية الحديث في كل منهم يذكر عبارة: "وهذا شكلة ومثله". وهذا يوضح أنه أرفق الشرح بخارطة تفصيلية لما تحدث عنه.

وكان للمقدسي رحلات ودراية بعيدة المدى التي اشتملت على معظم المياه المعلومة في المحيط الهندي، وانعكس ذلك على وضعه للخرائط البحرية، ويقول المقدسي عن هذه الأسفار: "وصاحبت مشايخ فيها ولدوا ونشأوا ..... فسألتهم عن أسبابه وحدوده، ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها، ويعولون عليها، ويعملون بما فيها فعلقت من ذلك صدراً بعدما ميزت وتدبرت ثم قابلته بالصور التي ذكرت"[١].

كما أشار المقدسي في كتابه إلى الخرائط الملاحية المعقدة التي استخدمها العرب للملاحة في المحيط الهندي، وقد لاحظ في أسفاره المهارة الفائقة للملاحين العرب في استخدام هذه الخرائط، وأن هذه الخرائط كانت مرسومة في غاية الدقة.

ولم يكتف المقدسي بنقد سابقيه في مجال التقسيمات الاقليمية، بل تطرق أيضًا إلى النظر في الخرائط السابقة والحكم عليها، ودل ذلك على اطلاعه على هذه الخرائط، وأخذه بأساليب صحيحة في رسم الخريطة، وتلقي المعرفة في هذا المجال من مصادر مختلفة.

والراجح أن المقدسي جعل الخريطة أساسية عنده، لكن في نفس الوقت زاد في شرحها، ويتضح ذلك من خلال نقده للبلخي بأنه اقتصر على كبار المدن[٢].

(١) المقدسي : مرجع سبق ذكره، ص ص ١١، ١٠.
(٢) المقدسي : المرجع السابق، ص٥.

أما معرفته بخرائط السابقين فقد عرض لذلك وهو يتحدث عن البحار فقال " لم نر في الإسلام إلا بحرين، أحدهما (البحر الصيني) إذا بلغ مملكة الاسلام دار على جزيرة العرب، كما مثلناه (صورناه) وله خلجان كثيرة، وشعب عدة. وقد اختلف الناس في وصفه والمصورون في تمثيله، ..... أما أنا فسرت فيه نحو ألفي فرسخ، ودرت على الجزيرة (الجزيرة العربية) كلها من القلزم إلى عبادان ....."[١]

والبحر الآخر (بحر الروم) يحدد طوله واختلاف عرضه، ويذكر جزره وخلجانه، ثم يقول : " والأندلس أخبر الناس به وحدوده وخلجانه، لأنهم يسافرون فيه ويغزون من هو يليهم، وفيه طرقهم إلى مصر والشام، وقد ركبت معهم المدة الطويلة أبدا أسائلهم عنه وعن أسبابه وأعرض عليهم ما سمعت فيه، فقلما رأيتهم يختلفون فيه"[٢]

من هذه النصوص وغيرها يتضح منهج المقدسي في رسم خرائطه، فهو يتأكد من صحة البيانات التى يوقعها، كما اعتمد على الدفاتر الملاحية، وعلى العاملين في حقل الملاحة الاسلامية، مما جعل هذا الأمر ميزة خاصة له تميزه عن سابقيه.

مما سبق يمكن النظر إلي المقدسي باعتباره حلقة وسطى بين المدرسة الكلاسيكية ومدرسة الإدريسي؛ ولكن مثل هذا الافتراض يتوقف على الوصول إلى خرائط المقدسي ودراستها، لأن المقدسي كما يتضح من مقدمة كتابه قد بذل الكثير في أن تخرج خرائطه على درجة عالية من الصحة والدقة والتمييز عن خرائط السابقين، أو كما قال هو: "أما الأشكال التى مثلناها فقد بذلنا فيها المجهود حتى صحت بعد ما تأملت عدة من صور.... ورأيت شيخا بسرخس قد فصل الأشكال وصور بلد الكفر والاسلام كله خطأ إلا القليل، وقلت له : هل سافرت؟ قال : ما جاوزت سرخس، قلت: قد سمعت بمن شرح الأقاليم بالخبر، وقد وقع في ذلك ما وقع من التخليط، ولم أر من صور الأقاليم بالنقل غيرك"[٣]

(١) المقدسي : المرجع السابق، ص ١٥.

(٢) المقدسي : المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) المقدسي: مرجع سبق ذكره، ص ٦.

ولم يكتف المقدسي بنقده لخرائط السابقين، بل تعرض – بما لديه من معرفة وخبرة في حقل الخرائط – للفصل في الخصومة القائمة في نسبة بعض الخرائط لكل من البلخي والاصطخري بقوله: "ورأيت كتابًا بخزانة الصاحب[١] ينسب إلى أبي زيد البلخي بأشكال، ورأيته بعينه بنيسابور قد حمل من عند الرئيس أبى محمد الميكالي غير مترجم، زعموا أنه من تصنيف ابن المزربان الكرخي، ورأيته ببخارا مترجما لأبراهيم بن محمد الفارسي (الاصطخري) وهذا أصح، لأني لقيت جماعة ممن لقيه وشاهده، يصفه منهم الحاكم أبو حامد الهمذاني، وهو كتاب أجاد أشكاله، إلا أنه قد خلط في مواضع كثيرة، ولم يبالغ في الشرح، ولا كور الأقاليم"[٢]

وهكذا نجد أن المقدسي لم يكن "حاطب ليل" يجمع دون تمييز، بل كان صاحب منهج يلتزم به، ويعيب من لا يأخذ بالمنهج العلمي السليم في التأليف الجغرافي ورسم الأشكال، ومثل هذا القول يجعلنا نفسر اقتصار أصحاب هذه المدرسة الخاصة في رسم الخرائط على تصوير العالم الاسلامي دون غيره، لأنهم لم يكونوا على علم ببلاد (الكفر) بمثل ما هم عليه بالنسبة للعالم الاسلامي الذى درسوه باستفاضة من خلال الرحلة للمعاينه والمشاهدة والملاحظة الشخصية، والسماع من الثقاة واختبار أقوالهم، والسؤال لأهل الأقاليم والبلدان، وما وجد في الكتب المصنفة بعد تمحيصه، على نحو ما يذكر المقدسي بقوله : "اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب (الجغرافيا)، وإن كانت مصنافاتهم مختلفة، غير أن أكثرها – بل كلها – سماع لهم. ونحن فلم يبق إقليم إلا وقد دخلناه، وأقل سبب إلا وقد عرفناه، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر....."[٣]

(١) الصاحب بن عباد، هو إسماعيل بن عباد بن العباس، وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علما وفضلا، استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي، ثم أخوه فخر الدولة، وسمي بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة منذ صباه، توفي سنة ٣٨٥هـ. انظر: الزركلي: الأعلام، ج ١، ط ١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ص ٣١٦.

(٢) المقدسي: مرجع سبق ذكره، ص ٦.

(٣) المقدسي : المرجع السابق، ص ٤٣.

وبهذا أقام المقدسي كتابه وخرائطه على قواعد أعلاها: ما شاهده وعقله ودونه، ثم سؤال ذوى العقول من الناس عن الكور والأعمال في الأطراف البعيدة، مع إثبات المتفق عليه ونبذ ما اختلفوا فيه. وما يكون عنده موضع شك ينسبه إلى قائله.

الـخـاتـمـة :

في النهاية يمكن أن نجمل الخصائص والسمات الرئيسية لخرائط هذه المرحلة من التطور في رسم الخرائط بما يلي:

١- إن هذه الخرائط لا صلة لها بالخرائط الفلكية؛ لأنها تدرس كل إقليم على حدة ولا يمكن جمعها معًا لتكون خارطة واحدة؛ لأن هذه المصورات أريد لها أن تكون دليلا للمسافرين، وتعد خرائط هذه المرحلة خرائط توضيحية ليست وظيفتها الأساسية تحدد المواقع على وجه الدقة الكاملة، بل مجرد بيان الهيئة العامة للأرض وبحارها وتوقيع البلاد بالنسبة لبعضها البعض. ومن ثم فهي تحقق فوائد تتعلق بالتعرف على الأقاليم، وما تتضمنه من ظاهرات طبيعية وبشرية تفيد في إرشاد الراغبين في التعرف على جغرافية الأقاليم.

٢- إن خرائط رواد هذه المدرسة تخلو من صور الناس والحيوانات، التي حفلت بها الخرائط الأوروبية في العصور الوسطى، ورسمت البحار والأمصار بشكل هندسي، على شكل دوائر، والجبال على شكل قطاعات في دوائر، وأنصاف دوائر، متصلة مع بعضها البعض، ورسمت طرق المواصلات على شكل خطوط مستقيمة.

٣- إن رواد هذه المدرسة رسموا العالم على شكل قرص يحيط به الماء، مع خليجيين يدخلان فيه من المشرق، وهما المحيط الهندي، والبحر الأحمر، ومن الغرب البحر المتوسط.

٤- رُسمت الخرائط بشكل مقلوب، فالشمال إلى أسفل، والجنوب إلى أعلى، والشرق إلى اليسار، والغرب إلى اليمين، بخلاف ما ألِفناه من رسم الخرائط اليوم.

٥- في الوقت الذى كانت فيه الخريطة الأوروبية مجرد زخرفة وتزويق للكتب الدينية، نجد أن أعلام هذه المدرسة كانوا أكثر دقة وفهمًا للغرض من الخريطة، فالمقدسي على سبيل المثال يقول: "وقد طولنا الكتاب بوصف المدن ..... وأوضحنا الطرق، لأن ذلك أصوب، ثم يشير إلى استخدام الطرق المختلفة لتمثيل الظاهرات الجغرافية في الخريطة، ويعلل هذا بقوله:" ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليه الخاص والعام".(١)

ولم تكن هذه الخرائط الوحيدة في هذه المرحلة فهناك جغرافيون آخرون برعوا في رسم الخرائط، غير أن الخريطة عندهم لم تكن أساسًا في الشرح الجغرافي، ولم يصوروا الأقاليم، وإنما رسم بعضهم خريطة مثل المسعودي، والبيروني.

(١) المقدسي : مرجع سبق ذكره، ص ٩.

المصادر والمراجع

أولاً – المصادر:

١- ابن حوقل: صورة الأرض، تحقيق كريمرز، طبعة بريل، لَيْدِنْ، ١٩٣٨.
٢- ابن منظور: لسان العرب، ج٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧.
٣- الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر الحيني، مراجعة شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، ١٩٦١.
٤- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، تحقيق دي خويه، ليدن، ١٩٠٦.
٥- النديم، الفهرست، ج١، طبعة ليبسك، ألمانيا، ١٨٨٢م.
٦- خير الدين الزركلي: الأعلام، ط١٥،ج ١، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.
٧- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥، ج١.
٨- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٥، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.

ثانيًا – المراجع :

١- إبراهيم شوكة: خرائط كتاب الأقاليم للإصطخري، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد ١٧، ١٩٦٩م.
٢- أحمد سوسة: الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، دار الفكر العربي، ١٩٧٧.
٣ – جمال الفندي: الجغرافيا عند المسلمين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.
٤- حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط٢، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٨٦م.
٥- حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.

٦- عبد العال الشامي: جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، العدد ٣٦، ١٩٨١.

٧- فلاح شاكر أسود، علم الخرائط، نشأته وتطوره ومبادئه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٨.

٨- كراتشكوفسيكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٥.

٩- مينوركسي: الجغرافيون والرحالة المسلمون، تعريب عبد الرحمن حميدة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، العدد ٧٣، ١٩٨٥م.

١٠-نفيس أحمد، الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، ترجمة فتحي عثمان، مراجعة علي أدهم، دار القلم، الكويت، د. ت.

١١- نفيس أحمد، جهود المسلمين في الجغرافيا، تعريب فتحي عثمان، مراجعة علي أدهم، دار القلم، الكويت، د/ت.